بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ نحو خمسة وعشرين عاماً كنت أدرِّس تفسير الذكر الحكيم لطلاب قسم اللغة العربية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وظللت أعواماً متوالية أُعْنى بدراسة اتجاهاته المتعددة على مرِّ التاريخ ، من اتجاه يقوم على المأثورات المروية ، إلى اتجاه اعتزالى أو شيعى أو صوفى أو فقهى تشريعى أو لغوى نحوى أو بلاغى . ولفتنى فى اتجاه المأثورات ما أُقحم عليها من إسرائيليات تتصل بالحديث عن بدء الخليقة وعن قصص بعض الأنبياء مثل مقدار سفينة نوح ونوع الخشب المصنوعة منه ، ومثل أسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم الخليل ، ومثل الجزء من البقرة فى قصة موسى الذى ضُرب به القتيل فرُدَّتْ إليه الحياة ، ومثل أسماء أصحاب الكهف وعدّتهم وأحوالهم ، إلى غير ذلك مما ينبغى التحرز منه وتنحيته عن تفسير القرآن الكريم . ولفتنى فى اتجاهات غلاة التشيع والصوفية الاتساع فى تأويل الآيات ، حتى لَيُعْدَلُ بها أحيانا إلى دلالات إشارية لا تحتملها الألفاظ ولا يؤديها ظاهرها الصريح .

وقديماً لاحظ ذلك كله ابن تيمية فى مبحثه القيم عن أصول التفسير ، وقد حمل فيه على الإسرائيليات المدسوسة فى التفاسير ، وفى رأيه أن هذا هو الذى دفع أحمد بن حَنْبل الإمام المشهور إلى أن يقول : ثلاثة لا

أصل لها : التفسير والملاحم والمغازى . وحمل ابن تيمية على المعتزلة والباطنية الذين يَصْرفون ألفاظ القرآن عن معانيها ظاهرة إلى معان بعيدة تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم . وحمَل أيضاً على الصوفية ملاحظاً أنهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة . غير أن القرآن لا يتضمنها . وقد ينزلقون فيَحْملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من وحْدة الوجود ووَحدة الشهود والفناء فى حقيقة الله . وخلص ابن تيمية إلى أن خير طرق التفسير أن يفسَّر القرآن بالقرآن . فما أُجْمل فى موضع بُسط فى موضع آخر وما ذُكر موجزًا فى آية جاء مفصَّلاً فى آية أخرى . وإن لم يَفِ القرآن أحياناً بالمراد رجع المفسِّر إلى الحديث النبوى . فإن الرسول صلى الله عليه وسلم فسَّر بعض الآيات كما يشهد لذلك قوله تعالى شأنه : (وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » . ويضمُّ المفسِّر إلى ذلك أقوال الصحابة الذين رافقوا الرسول عليه السلام وفهموا عنه التنزيل . وكذلك أقوال التابعين الذين خالطوهم ووقفوا منهم على معانى القرآن الكريم . ويفتح ابن تيمية الأبواب أمام المفسر ليجتهد ويستنبط ، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العُدَّة لذلك باستيعابه للذكر الحكيم وآياته ومعانيه المتقابلة ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه ، وبعد أن يُتْقن العربية ويتعمَّق علوم الشريعة ، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة .

ومضى ابن تيمية يطبِّق منهجه على بعض السور القرآنية ، وفى مقدمتها سورة النور وبعض سور قصار من جزء «عمَّ» وخص سورتى المعوّذتين برسالة مستقلة ، وأفرد كتاباً لسورة التوحيد أو الإخلاص . وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده يتحول إلى بحث فى مضمونها من خلال القرآن كله

وتبعه فى هذا المنهج ابن قيم الجوزية تلميذه فى كتابه : « التبيان فى أقسام القرآن » وفى تفسيره للمعوذتين . ولذلك مقدمات عند من سبقهما من المفسرين ، إذ كثيراً ما يتوقفون إزاء مضمون آية ليشيروا إلى مضمون مماثل لآية أخرى ابتغاء الدقة فى التفسير . وقد وضع الراغب الأصفهانى فى القرن الخامس الهجرى معجماً عظيماً لألفاظ القرآن عرض فيه كل لفظة من ألفاظه وجميع استعمالاتها المبثوثة فيه لتكون دائماً تحت أعين المفسرين فلا يختلط عليهم معنى ولا تضطرب عليهم دلالة .

وجهودٌ لا تكاد تُحْصى نهض بها الأسلاف لتفسير القرآن وبيان معانيه ، حتى إذا أشرفنا على نهاية القرن التاسع عشر الميلادى رأينا العالم الجليل الشيخ محمد عبده يحاول – على هدى قراءاته لابن تيمية وتفاسير الأقدمين – أن يعرض تفسيراً دقيقاً بديعاً لجزء « عمّ » أخلاه من كل الشوائب العقيدية والإسرائيلية ومكّن فيه لرفض البدع والخرافات واستخدام الفكر الحرّ فى فهم معانى القرآن وما دعا إليه من الرقىّ بالروح والنهوض بالمجتمع . أما الرقىُّ الروحىُّ فبما قدم للإنسان من تهذيب خلقى قويم . وأما النهوض بالمجتمع فبما وثّق بين أفراده من تعاون وتكافل . مع تقديم كل الأسباب كى يتحقق الكمال الفكرى والروحى والاجتماعى الذى يطمح إليه الإنسان الممتاز . وقد دعم فكرةَ وحدة السياق فى السورة وأن المدار على عموم اللفظ لا على خصوص السبب ، ودعا دعوة قوية إلى التسليم بكل ما هو من عالم الغيب كعالم الملائكة والجن والشياطين وكالبعث وما يتصل به من الثواب والعقاب ، فكل ذلك ينبغى أن نسلّم به لقصور عقولنا عن معرفة كنهه والتعمق فى حقائقه .

وقد تَلتِ الشيخَ الإمام تفاسيرُ كثيرةٌ منها ما اهتدى بهدْيه ومنها ما خاضَ فى مباحث علمية كنت ولا أزال أراها تَجنح عن الجادَّة ، إذ القرآن فوق كل علم ، ومن الخطأ أن يُتَّخذ ذريعةً لإثبات نظريات علمية فى الطبيعة والعلوم الكونية والفلكية ، وهو لم ينزل لبيان قواعد العلوم ولا لتفسير ظواهر الكون . وما ذُكر فيه من خلق السموات والأَرض والأَفلاك والكواكب إنما يراد به بيانُ حكمةِ الله وأن للوجود خالقاً أعلى يدبِّره وينظم قوانينه . ولا ريب فى أن القرآن يدعو أتباعه دعوة عامة إلى العلم والتعلم للعلوم الرياضية والطبيعية والكونية . ولكن هذا شىء والتحول بالقرآن إلى كتاب تُسْتنبط منه النظريات العلمية شىء آخر لا يتصل برسالته ولا بدعوته . إنه دين لهداية البشرية ، يَزْخر بما لا يُحْصى من قيمٍ روحيةٍ واجتماعية وإنسانية ، وحَسْبُ المفسر أن يُعْنى ببيان ما فيه من هذه القيم ومن أصول الدين الحنيف وتعاليمه التى أضاءت المشارق والمغارب أضواء غامرة .

وكان من حسن حظى أن دعتْنى صحيفةُ الأهرام فى سنة ١٣٨٩ للهجرة لأشارك فى شهر رمضان المبارك ببعض أحاديث دينية ، ورأيت أن أعرض فيها دراسة لبعض سورٍ قصار ، ونشرتْ لى عَرْضاً لسورِ الفاتحة والتوحيد والعصر ، ووقع هذا العرض موقع استحسان من نفوس كثيرين كتبوا إلىَّ أن أمضى فى عرض سور أخرى ودراستها ، واستحثنى كثير من الأصدقاء ، وطلب إلىَّ عالمٌ جليل أن أبدأ بعرضٍ ودراسةٍ لسورة الرحمن : سورة النعم الدنيوية والأخروية . وأضفت إليها عرضا ودراسة لسور قصار ضممتُ إليها سور الفاتحة والتوحيد والعصر . وجميعها تتناول أصول العقيدة الإسلامية وبعض مبادئ الإسلام الخلقية والاجتماعية ، وقد بسطتها جميعاً من خلال آيات الذكر الحكيم ،

بحيث كنت أتخذ من الآية نورًا يهدينى إلى مضمونها العام فى القرآن ، وأحاول ، بقدر ما أستطيع ، عرضه ووصفه ، سواء اتصل ذلك بعظمة الله وجلاله ورحمته وآلائه فى الدنيا والآخرة ، أو بالرسالة والرسل ، أو بالملائكة والجن والشياطين ، أو بماهية الحياة بعد الموت والثواب والعقاب فى الآخرة ، أو بالتهذيب الروحى والخلقى ، أو بالعلاقات العمرانية ، أو بتحرير الإنسان من الهوى والخرافات وجملة الآثام ، أو بدفعه إلى استغلال عقله وكشف قوانين الكون وأسراره ، أو بإيقاظ وجدانه ومشاعره والسموّ به إلى الكمال الإنسانى المأمول . وأعترف بأنى رجعت إلى كثير من كتب التفسير كتفسير الطبرى والنيسابورى والزمخشرى والفخر الرازى والقرطبى وابن كثير وابن تيمية وابن قيم الجوزية والبيضاوى وأبى حَيَّان والألوسى وإسماعيل حقى والشيخ محمد عبده . وكلُّ ما نهضت به فى هذه الصحف لا يعدو غرْفَةً صغيرة بيدىَّ القاصرتين من ينبوع القرآن العظيم الذى يغذّى برحيقه الصافى العقول ويشفى القلوب والنفوس .

ولله الحمْدُ فى الأولى والآخرة

القاهرة فى ١٥ من ذى الحجة سنة ١٣٩٠هـ .

شوقى ضيف

فاتحة الكتاب

عرض ودراسة

فاتحة الكتاب الحكيم ، وأمُّ القرآن العظيم ، جمعتْ رُكْنَى الإسلام : رُكن العقيدة وركن العمل . العقيدة بكل ما يُطْوَى فيها من توحيد الله وتمجيده وتحميده والإيمان بأنه منْشئُ الكوْن وصانعه ومتعهده ، وبأنه يفيض عليه رحمته رحمةً واسعةً شاملةً ، وبأن هناك معادًا بعد الموت للحساب والجزاء . والعمل بكل ما يُطْوى فيه من عبادة الله وأداء فَرائضه الدينية والاستعانة القلبية بالله فى كل أمرٍ والتبتُّل إليه أن يهْدينا سبيل الرَّشاد ، سبيل منْ أَضْفَى عليهم نعمته ، فاتَّبعوا تعاليمه الروحية ، لا سبيل من استحقُّوا غضبه من المشركين والضَّالّين الآثمين .

(الحَمْدُ لِلّهِ) :

إذا أخذنا أنفسنا بشىء من إنعام النظر فى آيات السورة الكريمة وجدنا الآية الأُولى تبدأ بحمد الله والثناء الكامل عليه ثناءً يستحقه لذاته وصفاته القدسية وأفعاله الكونية . و (الله) هو اسم الذات العلية الأعظم ، وقد تكرر فى الذكر الحكيم نحو ألفين وسبعمائة مرة ، تارة فى ألوهيته ورُبوبيَّتِه ، وتارة ثانية فى وصف عبادته أو التعبد له ، وتارة ثالثة فى وصف أهل الهدى وأهل الضلال . وتقترن بالحمد فى الآية كل هذه الصفات الإلهية حمدًا للإله العلىِّ العظيم الذى أسبغ نوره على الوجود وأَضْفَى سلطانهَ على الأكوان سلطاناً كله خير وكله نعمة . وهو حمدٌ صادرٌ عن إيمانٍ عَميقٍ بجلال الله وكماله المطلق فى كل ما يتجلَّى به فى الكون مما يستوعبه البصر وما لا

يستوعبه وكلَّ ما يتمثله الإنسان بجوارحه وفى جوانحه من آيات عظمته . وفى الحديث النبوى : « إن عبْدا من عِباد الله قال : يا ربِّ لك الحمدُ كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فَعضَلَتْ بالملَكَيْن (أى استغلقتْ على الملكين الكاتبين لأعمال هذا العبد) فلم يدْرِيا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء . وقالا : يارَبَّنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها . قال الله عزَّ وجلَّ – وهو أعلم بما قال عبْدُه – : ماذا قال عبْدى ؟ قالا : إنه قد قال : يارَبِّ لك الحمْدُ كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكْتُباها ، كما قال عبدى ، حتى يلقانى ، فأَجزيه بها » . والحديث تمثيلٌ قويٌّ لثواب كلمة : (الحمدُ للهِ) . وهو حمدٌ يتضمَّن الشكر للكائن الأعلى شكرًا من أعْمَق الأعماق على ما أسْدى للإنسان من نِعَمٍ ، فى مقدمتها نعمةُ الشَّرائع السماوية عامة ، والشريعة المحمدية خاصَّةً ، بكل ما حملت للإنسانية من خير وسعادة فى الدَّارَيْنِ . وتتضمَّن كلمة (الحمد لله) أيضاً الرِّضا بكل ما أعطَى وكلَّ ما قدَّر وقَضَى ، رضاً قِوامه تفويض أمر الإنسان إلى الله والتسليم لحكمه تسليماً يتخلَّص فيه من كل منازعة لمعارضة أمر من أوامر الله أو نهى من نواهيه . ولذلك كان الحمد أعمَّ من الشكر وأدقَّ ، إذ هو ثناءٌ على المحمود بصفاته دون تفكير فى معروفٍ قدَّمه إليك ، فى حين أن الشكر لا يكون إلا مكافأة على معروف أو صنيع .

(رَبِّ العَالَمِينَ) :

ربّ السموات والأرض وما بينهما ، أو بعبارة أخرى ربّ جميع الكائنات

والموجودات وكل مخلوق من الإنس والجنّ والملائكة وغير الملائكة . وقد ذُكرتْ كلمة (رب) فى القرآن أكثر من تسعمائة وخمسين مرة . ومعناها اللغوى المصلح والمدبِّر والمتعهِّد القائم على الشىء والمنمِّى له الحافظ . فالله جَلَّ وعَزَّ (ربّ العالمين) جمع عالَم . وهو كل موجود سواه . يتعهَّده بالتربية والتنمية، إذ العالمُ كله بجميع صوره من إنشائه . وهو الذى يرعاه ويقوم عليه . وإن عمله فيه وإبداعه فى صُنْعه ليتجلَّى لكل عينٍ ناظرةٍ . ومن هنا استمد القرآن برهانه الكونىَّ على وجود الله . فالكونُ . وكل ما فيه من كواكبَ وغير كواكب يشهد بأَن هناك إلٰهاً دبَّرَ هذا الكونَ وَأقام نظامه الوطيد وبثَّ فيه أسراره وحكمته ، فكل شىء يسير على بصيرة وهُدًى . وكل شىء يسير بقوانين محكمة لا عِوج فيها ولا أَمْتَ ولا نَقْصَ ولا اضطراب ، يقول تبارك وتعالى فى سورة يٰس : (وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ويقول فى سورة المُلْك : (ما تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ) فكل شىء مخلوقٌ بتقدير دقيق خلقاً يدل على الصانع العظيم المنعوت فى سورة الأعلى بقوله : (الَّذِى خَلَقَ فسوَّى والَّذِى قَدَّرَ فَهدَى) . خالق يُتِم خلقه فى أروع صورة محكمة . صورة تأخذ بالألباب حتى لتشهد مذعنة بأن للكون إلٰهاً يقوم على إيجاده وتصريفه وضبطه بقوانين ثابتة لا يمكن نقضها ولا بطلانها . إذ تَسْرِى فى كيان الوجود كله . وتأخذ بزمامه ، حتى ليتضح فيه الانقياد والخضوع لكائن أعلى يُهيْمن عليه ويُسيطر بحكمته العليَّة . إلٰه يعنو له كل الوجود وتَعْنُو له كل الوجوه قد أحاط

علمه بكل شيء كما جاء فى سورة الأنعام : (وعِنْدَهُ مفَاتِحُ الْغَيب لَا يعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ولا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ولَا رطْبٍ وَلَا يابسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ) ، فكل شيء فى الكون مسخَّر لعلم الله ولسلطانه المبسوط على كل ما فى الوجود ، تسخيراً قوامه النظام المطرد دون اضطراب ودون أى خَلَلٍ أو أى تفاوت ، مما يشهد بأن للوجود خالقاً أعلى يدبِّرد ويحكم تدبيره ، مفيضاً عليه من جلاله وجماله . يقول جلَّ شأنه فى سورة آل عمران : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ واخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ) فكل مَنْ تأمَّل فى ملكوت السموات والأرض ونظام الكون عرف أنه لم يحدث مصادفة ولا أحدثته قوة عَمْياءُ ، بل أحدثه مدبِّر أعظم أنشأه على قوانين ثابتة ، ومضى يتعهد كل ما فيه حتى يبلغ مستقره والغاية التى قُدرتْ له . وليس فى هذا الكون العظيم شيءٌ أدلّ على الله من شيء ، فأضخمُ الكواكب حجماً فى السموات كأصغر الكائنات حجماً فى الأرض من حيث الدلالة على دقة الصُّنع . وبالمثل الطاووسُ المُسْتَحْسَنُ والغراب المُسْتقْبَحُ ، والنارُ الحارَّةُ والصَّقيعُ الباردُ ، والطيور والحشرات ، كلها سواء فى الدلالة على منشئ الكون . ومثلها الفيل والهِرَّة والجبل والذَّرَّة . فمنها ومن نظائرها جميعاً يتألف الكَون ، وفى كل كائن من كائناتِهِ غرائب ، ومن ضَمِّ بعضها إلى بعض تتكاثر الغرائب والأعاجيب الدَّالَّة على الصانع الأول وما بثَّه من حكمته فى خلق الحيَّات والذئاب والفَراش والذُّباب وكل ما تبغضه أو تظن الحكمةَ فيه خافيةً أو ناقصة . إنه الكون بتمامه وكل ما فيه من كائنات خَيِّرة وشرِّيرة يتألَّف منها بنيانه وكُلِّياته وجُزْئياته وما يداخلها

من كَوامن الحكمة الإلهية ودقائقها مما يملأ النفوس بالعجب ، ومما يدفع العقول إلى الإيمان بإلٰهٍ قائمٍ على هذا الوجود يدبِّره ويحكم تدبيره إحكاماً متْقَناً . وهو ليس خالقاً ولا صانعاً ولا منشئاً فحسب ، بل هو أيضاً (ربّ) يُربِّى ما يخلقه وينمِّيه ويتعهَّده فى أطواره من طور إلى طور حتى يصل إلى الغاية المرتقبة . ولا تحمل كلمة (رب) معنى التعهد والرعاية فحسب ، بل تحمل أيضاً معنى العطف وافتقار الإنسان إلى ربه ومتعهده ، ولذلك كثُر دعاءُ الناس الذَّاتَ العليَّةَ به ، وفى القرآن أمثلة كثيرة لذلك كما جاء فى أواخر سورة آل عمران من مثل : (رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عنا سيِّئَاتِنَا وتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرارِ) وتتردد الصيغة (رَبَّنا) مرارًا وتكرارًا فى الذكر الحكيم.

(الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ) :

إنعامٌ بعد إنعام . و (الرَّحمٰن) عَلَمٌ خاصٌّ به للدلالة على أنه لا نظير له ولا شبيه فى رحمته ، إذ يعمّ بها الخلق جميعاً ، حتى من نكَل عن طاعته من خلقه . وهو رحيمٌ بعباده ممن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً . وقد تكرر وصف الله بالرحمة فى الذكر الحكيم نحو خمسمائة وستين مرة ، وكأنما هى الصفة الغالبة للرُّبُوبِيَّة ، فهى ربوبية تقوم على الرحمة بالناس حتى العُصاة . يقول جلَّ شأنه فى سورة الأَنْعَام : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمةَ) . ويقول فى سورة الأَعْرَاف : (وَرَحْمَتِى وسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) . وتقترن الرحمة بالعفو فى آيات كثيرة مثل آية سورة الزُّمَر : (قُلْ يا عِبادِىَ الَّذِين أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِم لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوب جَمِيعاً إِنَّهُ هُو الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) إنه رحيمٌ يعْفُو عن سَيِّئاتِ عباده ويغفر لهم

ما اقترفوا من ذنوب وآثام . وإنه ليطلب إلى المؤمنين أن يتمثَّلوا به فى الرحمة والعفو والغفران لمن استوجبوا أشدَّ العقاب من الكفار قُساة القلوب إذ يقول جَلَّ وعَزَّ للرسول فى سورة الجاثية : (قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ) أى يَعْفوا ويتجاوزوا عمَّن لا يرجون ثواب الله ولا يخافون عقابه . ويقال إن الآية الكريمة نزلت فى عمر بن الخطَّاب رضى الله عنه ، حين شتمه رجل مشرك من قبيلة غِفار ، فهَمَّ أن يبْطِشَ به ، وقيل : بل همّ أن يقْتل عبد الله بن أُبَىّ رأس المنافقين حين سَفِه فى غزوة بنى المُصْطَلِقِ على الرسول عليه السلام وعلى المهاجرين رضوان الله عليهم . وهى شفاعة عظيمة من الرحمن الرحيم أن يُغْضى بُمَرُ وأصحابُهُ من المؤمنين عن أذى المشركين والمنافقين ، وأن يصفحوا عنهم ويَكْظموا غيظهم امتثالا للإرادةَ العُلْيا الكريمة . ولعل فى ذلك ما يدل بوضوح على بطلان ما يزعمه أعداءُ الإسلام من أن الله ، عَزَّ سلطانه ، يُوصَفُ فى القرآن بالقسوة فى الانتقام .

وينبغى أن نعرف أنه لم يُذْكر الانتقام والعقاب فى الذكر الحكيم ترهيباً إلا ذُكِرَ معهما الرحمة والغفران ترغيباً . ويموج القرآن بالرحمة والعفو والمغفرة . ولا ريب فى أن العقاب الذى يتردَّد فى القرآن إنما يُراد به أن ينتهى المسىء عن إساءته وأن يرتدع ويزدجر ويسلك طريق الهدى والرشاد ، فدافعه ليس الرغبةَ فى العقاب ، إنما الرغبة فى أن يَثُوب المذنب إلى نفسه ، ويتوب من كل ما سقط فيه من المعاصى . ومعروف أن القرآن جعل عقاب السيئة بمثلها ، فى حين جعل جزاء الحسنة أضعافاً مضاعفة ، يقول عزَّ شأنه فى سورة الأنْعام : (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا

ومن جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) . والقسوة المزعومة لا شك ظلمٌ تنزَّه الله تعالى عنه ، وقد طلب إلى عباده أن يتنزَّهوا عنه وأن يتمسَّكوا بالعدل وقِسْطاسه المستقيم ، بل جعل ذلك أمرًا محتوماً فى آية سورة النَّحْل : (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) وأضاف ، جَلَّ ذكره ، الإحسان إلى العدل حتى لا يقف الإنسان عند المساواة فى المكافأة على الخير والشر ، بل يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه. وفى صحيح مسلم عن الرسول عليه السلام : «لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنط من جنَّته أحد » . ومن تمام رحمة الله بعباده أوصافه لذاته المردَّدة فى القرآن من مثل (اللطيف ، الودود ، الرءوف) . ومن أعظم هذه الأوصاف وصف المحبة ، والقرآن مليءٌ بها زَاخرٌ بِعَبيرها من مثل : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ويُحِبُّ المُتَطهِّرين) (واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِين) (واللهُ يُحِبُّ الْمُحسِنين) (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) ويقول جلَّ شأنه فى سورة الصَّفِّ : (إِنَّ الله يُحِبُّ الَّذِين يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ). فالله يحبُّ عباده لجهادهم فى سبيله ونضالهم عن دينه ، ولتقواهم وإحسانهم وصبرهم ، ولتطهّرهم وتوبتهم توبة نَصُوحاً ، وعباده يحبونه ويُصْفونه وُدَّهُمْ حتى لا يبقى فيهم موضع لغيره ، بل حتى يصبحوا كلهم له ظاهرًا وباطناً .

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) :

مصرِّف هذا اليوم بحسب إرادته ومشيئته ، وهو يوم الجزاء ، يوم يحاسَبُ كلُّ إنسان على ما قدَّمت يداه من خير أو شر ، ومن عمل صالح

أو عمل سيئ ، ويُجْزَى الجزاء الأوفى كما جاء فى سورة الزَّلْزَلة : (فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ومَن يَعمَلْ مِثْقَال ذَرَّةٍ شَرًّا يرهُ) فلا ظلم ولا جَوْر فى الجزاء ، أو بعبارة أخرى فى الثواب والعقاب ، بل عدلٌ أدقّ ما يكون العدْل ، وهو عدل مقرون بالرحمة والإحسان ، ومن أجل ذلك سبقت آيةُ الثواب آيةَ العقاب . ونَصَّ القرآن فى غير موضع على أن الثواب يتضاعف كما مرَّ بنا فى آية الأنْعام إذ تضاعف فيها عشرَ مرات ، بأن جُعل للحسنة (عَشْرُ أَمْثَالِهَا) . والآية التى نحن بصددها تتضمَّن ـ كما هو واضح ـ عقيدة المعاد وأن الناس مبعوثون بعد موتهم للعرْض على (الرحمن الرحيم) ومحاسبون على أعمالهم ، فقد أعطاهم الله من العقل والفكر والتمييز والبصيرة والحكمة ما يجعلهم يفرِّقون بين الأعمال الخيِّرة والشِّرِّيرة ، والنافعة والضارة ، فمن ميَّز واختار العمل الصالح كُتبت له السعادة فى الدار الآخرة ، ومن عَطَّل عقله واتبع هواه واختار العمل السيئ كُتب عليه الشقاء كما قال تعالى فى سورة يُونس : (لِلَّذِين أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِن اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون) . وقد سُمِّى يومُ البعْثِ فى الذكر الحكيم بأسماءٍ عِدَّة ، منها : يوم الدين ، واليوم الآخر ، ويوم القيامة . وقَرَنَ القرآن مرارًا يوم المعاد بالإيمان بالله موردًا أدِلَّةً وبراهين كثيرة على أنه واقع لا محالة . فإن من أنشأ الكون وأبرزه من ظلام العدم وأفاض عليه من نوره قادر على أن يعيد الناس إلى حياة جديدة كما قال فى سورة الإسْراء : (وَقَالُوا

أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً ورُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جدِيدًا قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُم أَوَّل مَرَّةٍ) . والإيمان بالبعث والحساب والجزاء من شأنه أن يدفع الإنسان إلى حياة أفضل يتحلَّى فيها بالخلق الكامل مجتنبا الكبائر والآثام ما صَغُر منها وما كَبُرَ حتى ينال رِضْوان ربه . وتتضمَّن كلمة (مالك) التى وُصِفَتْ بها الذاتُ العلِيَّةُ القدرةَ والاختيارَ ونفاذَ الحكم كما تَتضمَّن العَفْو والصَّفْح والغُفْرَانَ ، فالله (مالك يوم الدين) المتصرِّف فى شؤونه يثيب ويعاقب ، وقد يصفح عن العقاب . ولامعقِّب لحكمه ، إنه مالك رحيم ، وعادل يحفُّ الإحسانُ عدلَهُ ، ويقول جلَّ شأنه فى سورة هود : (إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيئاتِ) فالأعمال الحسنة تكفِّر عن السيئات وتذهبُ بالعقاب عليها وتمْحُوه محْوًا . تفضُّلٌ كريم من صاحب الفَضْل والإنعام .

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ) :

توجُّهٌ إلى الذات العلِيَّة من الغيبة إلى الخطاب لبيان الركن الثانى من ركنى الإسلام اللذين أشرنا إليهما فى مستهلّ الكلام عن السورة الكريمة ، ونقصد ركن العمل بكل ما يتصل به من العبادة وأعمالها المفروضة التى يجب على كل مسلم أداؤها ، وهى الصلاة والحج والصوم والزكاة . الصلاة بما يسبقها من طهارة الوضوء وبما فيها من تلاوة القرآن ومن التكبير والتسبيح والاستغفار . والحج المفروض على المستطيع القادر فى أشهر معلومات بما فيه من نُسُكٍ وذكر لله وخلوص تام للعبادة . والصوم : صوم شهر رمضان الذى وصفه الله فى سورة البقرة بقوله : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنزِل فِيه

الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) . ثم الزكاة ، وهى أن يُؤْخَذَ جزء من مال الغنىّ للفقير وللمصلحة العامة للأُمَّة والدولة . ويسمِّى الإسلام هذا الصنيع زكاةً أى تطهيراً للنَّفْس . وجعل الله الجهادَ فريضةً مكتوبة كفرائض العبادة السابقة . بل لقد جعله أروع وأعظم من نُسك النسَّاك ومن الاعتكاف لعبادة الله آناء الليل وأطراف النهار . وتتضمَّن الآية توحيد الإله المعبود ، فالله وحده الذى تعْنو له الوجوه ، ولا معبود سواه ، ولا عبودية لغيره من أوثان وأحجار وكواكب وأجرام سماوية أو قوى طبيعية ، يقول عزَّ ذكره فى سورة طه : (إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي) ، ويقول فى سورة فُصِّلتْ : (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ) ، ويقول فى سورة النِّساء : (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَادُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ). فكل شىء يمكن العفو عنه وغفرانه إلا الشِّرْك بالله ، فإثمه أعظم من أن يُغْفَر ، وأىُّ إثم ؟! إنه ليس إثماً فى حقِّ الله وحده ، بل هو أيضاً إثم فى حقِّ الإنسان الذى منح أداة التفكير ، لترفعه من حضيض الوثنية إلى مراقى التوحيد ، فإذا هو يعطِّلها ، وبدلا من أن ينتفع بالقُوَى الطبيعية ويسخِّرها لنفسه كما أوصاه الذكر الحكيم مبدئاً ومعيداً إذا هو يقدِّسُها ويعبدها ويعيش فى عالمها الخرافىّ المؤذن بالبوار والضلال والخسْران . إنه ليس هناك إلا إله واحد فُرضت عبادته على الناس جميعاً . إنه إلٰه الكون ومنشئه وخالقه ، ولا معبود بحقٍّ سواه ، إلٰه تخشع له كل القلوب ، وتذعن كل النفوس ، آملة فى الهداية والرشاد .

(وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) :

منك وحدك نطلب العون والتأييد . وهو طلب تتمثَّلُهُ القلوب المؤمنة ، إذ لا تكتفى بما يؤدِّى صاحبها من الفروض الدينية العملية . بل تطلب المزيد . تطلب أن يزخر الشعور الباطنى بالحاجة إلى العون الإلٰهى . حتى تتكامل العبادة . وحتى لا تكون أعمالا للجوارح فحسب . بل تكون قبل كل شىء أعمالاً قلبيةً . والآية تتضمن اللجوء إلى الله . والثقة به . وبالتالى تتضمن التوكل عليه توكلاً مخلصاً صادقاً . وقد نَدب له القرآن كثيرًا وحثَّ عليه فى مثل آية سورة إبراهيم : (وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون) ، وآية سورة المائدة : (وعلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ) . وآية سورة آل عمران : (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين) . والتوكل هو التفويض الصادق لله فى كل أمر . بحيث نستطيع أن نقول : إن الدين الحنيف شطران : شطر هو التوكل وشطر هو العبادة أو الإنابة . والاستعانة بالله أو التوكل عليه إنما يكونان فيما يرضيه من الإيمان وتنفيذ أوامره ونواهيه وجهاد أعدائه وغير ذلك من محابِّه . ولا يجوز التوكل على الله أو الاستعانة به فى إثم أو ظلم أو عدوان وغير ذلك مما لا يحبه الله ولا يرضاه . وينبغى ألا يخلط أحد بين التوكل والاستعانة من طرف والتواكل والقعود عن العمل من طرف آخر ، فالتوكل ثقة بالله ، ومثله الاستعانة ؛ مع العمل ومع السعى فى الأرض ومع التماس الرزق . أما التواكل فنكوص عن النهوض بالعمل وقعود مُزْرٍ عن كسب القوت وسدِّ حاجات الحياة ، حتى ليصبح صاحبه مهيناً يعيش بذلِّ الاستجداء ومهانة السؤال .

(اهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) :

دُعاءٌ من المربوب إلى الربِّ أن يدلَّه على الصِّراط أو الطريق المستقيم ويرشده إليه ، طريق قاصد لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهو الدين الحنيف بعقيدته وأعماله وعباداته وبكل ما رُسِم فيه من مُثل خلقية ومن قِيم اجتماعية وإنسانية ، مما يُعَدُّ من قِوامه ومقوِّماته ، على نحو ما نعرف من جملة الفضائل التى ألحَّ الإسلام على أتباعه أن يزدانوا بها زينة رفيعة . وقد يُفهم من الآية الكريمة أنها تدفع رأى المعتزلة ومن اعتقدوا اعتقادهم من أن الإنسان حُرٌّ فى إرادته وما يصدر عنه من أقوال وأفعال . وللأسلاف فى ذلك محاورات ومناقشات طويلة حادَّة . ولعل الرأى الصحيح هو أن هناك إرادة ربانية مطلقة تسيطر على كل ما فى الكون من إنسان وغير إنسان ، سجلها الله فى مثل آية سورة الإنسان : (وما تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ) . وبجانب هذه الإرادة أو المشيئة العُلْيا إرادة الإنسان أو مشيئته الصغرى التى تجعله مسئولا أمام الله عن عقيدته وعبادته وجميع أفعاله . وقد صوَّر الله هذه المشيئة الصغرى فى مثل آية سورة الكَهْف : (وَقُلِ الْحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفرْ) ، وآية سورة فُصِّلَتْ : (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفسِهِ ومنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) . وبذلك يرتفع التعارض الشديد بين آراء المعتزلة وأهل السنة فى هذه المسألة من مسائل العقيدة .

(صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) :

أى طريق من أَسْبغْتَ عليهم نعمك وأفضالك ، فإنك أهل

الفضل والإنعام إنعاماً لا يدخل تحت حصر ولا يضمه أى حسبان ، إنعاماً يزداد به نور البصيرة نوراً إلى نوره ، وهو نفس النور الذى أفاضه الله على السابقين المقرَّبين فى آية سورة النساء : (فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِين والشُّهداءِ والصَّالِحِين وَحَسن أُولٰئِكَ رَفِيقاً). وكأن هذه الآية توضِّح الإنعام فى آية فاتحة الكتاب ، فهو إنعام متصل لا ينقطع ، ليس كمن يُنْعَم عليه ويُهْدَى إلى الطريق المستقيم ثم يُقْطَعُ به ، بل هو إنعامٌ دائمٌ شاملٌ يَعُم جميع المعارف والهدايات والمقامات التى تؤدِّى إلى رِضْوان الله العظيم . وهذا الإنعام الجليل الذى يطمح إليه الداعى ناظراً إلى إنعام الله على النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين قد يحمل فى مدلوله العلم اللَّدنِّىَّ أو الإلٰهى الذى يقابل علم الإنسان والذى يفيضه الله ـ فى اعتقاد الصوفية ـ على أَصْفِيائه ، فى حين يرى أهل السُّنَّة أن هذا العلم الرَّبانىَّ إنما يستمد من مِشكاة الدين الحنيف ومن كتاب الله وسُنة رسوله الكريم .

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) :

الغضب من المخلوقين ثوران يداخل قلوبهم ، ويكون منه محمود ومذموم ، فالمحمود ما كان فى جانب الحق ، والمذموم ما خالف الحق والدين. أما غَضَبُ اللهِ المبثوثُ فى القرآن فمعناه إنكاره على منْ عصاه فيعاقبه ، أو بعبارة أخرى معناه عقوبته كما جاء فى الحديث : « إن الصدقة لتطفئُ غضبَ الرَّبِّ » أى عقابه . والضلالُ الانحرافُ عن سُننِ القَصْد والطريق السَّوىِّ . والداعى يسأل الله أن يدفع عنه الضلال والغضب كما سأله أن يهديه إلى طريق الرشاد .

وهذه السورة الكريمة هى السورة الوحيدة فى القرآن التى يوجَّه فيها الحديث من المربوبين إلى ربهم . أما بقية السور جميعاً فيوجَّه فيها الحديث من الربِّ إلى المربوبين لتلقينهم الرسالةَ النبويَّةَ وتعاليمها السماوية على حين نرى الفاتحة مناجاة للذات العَلِيَّةِ ، مناجاة محفوفة بالتجلَّة لصفات كمالها المطلق ، وبالإخلاص القلبى الصادق لدين الله الحنيف اعتقاداً وعبادة ، وبالخشوع أمام الجلال الربَّانى والتضرع لرب العالمين أن يضفى على المربوب نعمة الهداية الإلٰهية . والسورة بذلك مناجاة رفيعة قسِمَتْ بين الرَّبِّ ومَرْبوبه ، وقد فُرِضَ تكرارها فى كل صلاة ، وسُمِّيت فاتحة الكتاب وأم الكتاب وأمّ القرآنَ والسبع المثانى ، لأن آياتها السبع — بعدَّ البسملة من آياتها — تُثَنَّى فى كل ركعة وتُعاد بشذاها العِطْرىِّ الذى يُغذِّى العقولَ والقلوبَ والأفئدة .